الفصل الثالث

ثورات الرافد العربي المصري

الثورة الموسوية وظروفها

يقول بعضهم أن موسى هو ابن الأميرة حتشبسوت التي أصبحة ملكة فيما بعد، وقد ولدته عام ١٥٢٧، فتكون دعوته قد قامت بحسب هذا الزعم في حوالي النصف الأول من القرن الخامس عشر قبل الميلاد. ويقول آخرون بأنه كان كاهناً مصرياً خرج للعناية بالفقراء والتبشير بين صفوفهم فكان يعلمهم النظافة على نسق القواعد المتبعة عند الطبقة الميسورة في مصر ويداوي مرضاهم وينظم صفوفهم. ويذهب بعضهم إلى أنه كان ضابطاً مصرياً كبيراً قاد حملة ضد الأحباش وانتصر عليهم وتزوج من تربيس ابنة ملكهم، وقد أيدت التوراة زواجه من امرأة كوشية حبشية. وموسى اسم شائع عند قدماء المصريين: «امنمس» أي «امون موسى» مثلاً، و«بتاحمس» أي «بتاح موسى»، و«رعمسيس» أي «رع موسى». و«امون» و«بتاح» و«رع» هي آلهة مصرية، كما أن «رعمسيس» اسم لعدد من فراعنة مصر، و«بتاحمس» اسم الكاهن الأكبر لمدينة منفيس في أواسط القرن الخامس عشر قبل الميلاد وله اهرام خاص به. ونجد من جهة أخرى أن «ذكر موسى ما ورد على لسان عاموس واشعيا، وهما النبيان اليهوديان اللذان سبقت دعوتهما تاليف أسفار موسى الخمسة. بنحو قرن من الزمان». وتقول التوراة أن الخروج من مصر كان عام ١٢٢٠ ق.م. إلا أن هنالك ذكر لاسرائيل على لوحة أقامها الفرعون مرنبتاح حوالي عام ١٢٢٥ ق.م. مما قد يدل على أن الخروج كان قبل ذلك التاريخ الذي ذكرته التوراة بزمن طويل. ثم أن «اسم يهود» بحد ذاته غامض الأصل فهو لم يطلق على أي جماعة من الناس إلا بعد زمان طويل من الخروج. والخلاصة، إننا نجد كثيراً من الغموض يكتنف تاريخ الدعوة الموسوية كما يكتنف هوية صاحب هذه الدعوة. ولكن هناك أموراً مؤكدة عليها شواهد تاريخية ظهرت في آثار الأقدمين يمكن الاستفادة منها للكشف عن النواحي الأساسية في ظروف الدعوة الموسوية:

أولاً: كانت الثورات واضرابات الصناع معروفة في جملة المجتمعات الانسانية المحكومة بنظام الرق الذي يذهب إلى أبعد حدود القسوة في معاملة الكادحين من العبيد وغير العبيد. فنجد مثلاً في الآثار المدونة الفرعونية خبراً حول تأخر صرف الأجور للعمال زمناً طويلاً. فحاصر هؤلاء رئيسهم وأنذروه بقولهم له: لقد ساقنا الجوع والعطش إليك وليست لنا ثياب ولا عندنا زيت ولا طعام فاكتب إلى سيدنا الملك في هذا الأمر. واكتب إلى الحاكم الذي يشرف على شؤوننا حتى يعطينا ما نقتات به. وتروي قصة أخرى متواترة أخبار فتنة صماء اندلع لهيبها في مصر واستولى العبيد فيها على احدى المديريات وظلت في أيديهم زمناً طويلاً كانت

نتيجته، بحسب تعبير ديورانت في قصة الحضارة، «إن الزمن الذي يجيز كل شيء أقر امتلاكهم إياها».

وكان الفرد (وما يزال) ضعيفاً ضئيلاً أمام قهر نظام الرق فلا بد للمظلومين من أن ينتظموا في تجمعات مناسبة ليفرضوا خلاصهم وحريتهم. فالأرقاء والمضطهدون كانوا مثلاً يهربون بجماعات منظمة إلى الجبال والغابات والصحارى وغيرها من المواثل الوعرة البعيدة حيث يختبئون كأهل الكهف بانتظار الفرج، أو يعلنون الخروج على النظام ويقومون من قواعدهم تلك بقطع سبل القوافل وبتنظيم الغارات على مرتكزات ذلك النظام الفاسد. وثورة سبارتاكوس الشهيرة تبين لنا أنه في الظروف التي كثر فيها الأرقاء في جملة المجتمعات الانسانية الخاضعة لنظام الرق واتيحت لهؤلاء فرصة التنظيم في حدود فكرة وهدف واضحين كانت عملية الفرار بالقوة تأخذ أبعاداً ضخمة تزعزع الجملة العبودية من أساساتها. فمن المعلوم أن حركة سبارتاكوس وقعت في القرن الأول قبل الميلاد ضد روما حيث قام أكثر من مائة ألف عبد (من مختلف الأجناس التي استعبدها الروم وأتوا بأبنائها إلى عاصمتهم ليعملوا فيها) بثورة كبيرة تهدف إلى الانعتاق من العبودية بالخروج بالقوة من ايطاليا إلى منطقة مناسبة من مناطق جملة البحر الأبيض المتوسط. وما استطاعت روما حينذاك اخماد هذه الثورة الضخمة إلا بعد سلسلة من المعارك دامت أكثر من سنتين.

ثانياً: إن الاضرابات والثورات ما كانت إذن غريبة عن مجتمعات جملة الرق في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وعلى الأخص عن مصر مركز هذه الجملة لفترة طويلة من الزمن. وتبين الشواهد التاريخية أن ظهور الدعوة الموسوية لا بد من أن يكون في فترة اضطرابات واسعة وقعت في هذا القطر، وفي فترة تحولات عميقة جرت في جملة المجتمعات الانسانية أيضاً. فالتعارض ما قام فقط بين السادة والكتل الضخمة الواسعة من الأرقاء ومن الأحرار الكادحين، وإنما قام أيضاً بين مختلف فئات السادة: بين التجار والكهنة، وبين الكهنة والأمراء إلخ.. تقول قصة الحضارة «إن النزاع قام في مصر بين الدولة والكنيسة (بين الأمراء والكهنة). فقد كانت أسلاب كل حرب والجزء الأكبر من خراج البلاد يتدفق في خزائن الهياكل والكهنة وجاع الشعب واشتد جوعه يوماً بعد يوم لكي يتخم الآلهة». ولا غرابة في هذا فحروب الامبراطورية الفرعونية الحديثة التي قامت فيها الثورة الموسوية مع بذخ الأمراء والكهنة تنزل بأثقالها الباهظة على عاتق جماهير المنطقة وخاصة منها مصر. فالتجار وكثير من طبقة السادة كانت ترى هناك أن السلم والاقتصاد في نفقات ما لا نفع فيه كالهياكل العظيمة والمقابر الباذخة وغيره من أوابد البنيان أنفع للناس وأجدى عليهم عند تنقل قوافل تجارهم على طرق آمنة لا تعكرها حركات الجيوش وعندما توجه النفقات نحو الميادين المنتجة للبضائع ولكل ما فيه نفع مادي للانسان.

ولقد أدى الصراع الاجتماعي الواسع الطويل في المرحلة الابراهيمية بين الوثنية الجامدة وبين التوحيد المنادي بأخوة الناس وخلاصهم من الشقاء إلى قيام الحضارتين المتقدمتين في كل من بابل ومصر، إلى قيامهما بنظامين اقتربا من التوحيد في حسن سياسة أمور الناس والتعامل فيما بينهم: الحضارة البابلية الأولى التي أعطت قوانين حمورابي، وحضارة الهكسوس المصرية التي هدمت الوثنية الفرعونية. ولكن العلاقات الاجتماعية في هاتين الحضارتين ما لبثت، كالعادة، أن تحولت واندفعت في اتجاه تضخيم دور القوى التي ورثت قيادة مجتمعيهما عن تلك التي تحقق التقدم الاجتماعي بقيادتها. فكانت النتيجة بطبيعة الحال أن حرمت تلك العلاقات من الحيوية والمرونة اللازمتين كي تصلح لأن تكون الشكل الذي يحتوي مختلف القوى الاجتماعية المتغيرة بالضرورة باستمرار والذي يخفف من تعارض هذه القوى فيما بين بعضها بعضاً ويجعلها

أقرب ما يمكن إلى التكامل والتعاون لتحقيق المزيد من التقدم الاجتماعي. وبتفاقم هذه الحال، بتفاقم تسلط القوى القائدة واتساع احتكارها استغلال فوائد المجتمع المادية والروحية ازداد الشكل العام القائم على تلك العلاقات الاجتماعية ضيقاً وجموداً وازداد تعارض محتواه من مختلف القوى الاجتماعية، ونمت لذلك أنواع مناسبة من الوثنية تساند انحراف النظامين الآنفي الذكر عن مسيرة التقدم. وتقوم الوثنية بداهة على أشكال مناسبة لعبادة جهة من الجهات الاجتماعية في إطار نظام جامد من المحرمات والمباحات تخدم محصلتها مادياً وروحياً تلك الجهة الاجتماعية المعبودة في الجوهر. ويقوم دوماً، بطبيعة الحال في مثل هذه الظروف، جهاز اجتماعي بكل مؤسساته واختصاصييه من بني الانسان بتأدية الشعائر المناسبة لتلك الوثنية. كما تسهر، من جهة أخرى، أجهزة القمع على فرض الخضوع للنظام القائم على خدمة الأسياد. وفي النتيجة لا بد من أن يحدث الانفصام التام بين ذلك الشكل العام لمجمل العلاقات الاجتماعية وبين الواقع محتوى هذا الشكل الذي تؤلفه مختلف القوى الاجتماعية. وتقوم بالتالي الأزمات الحادة والحروب والعصيانات والثورات التي تغير لا محالة النظام بعلاقاته الفاسدة. وكان هذا ما جرى لنظامي الحضارتين الآنفتي الذكر فانهارت حضارة بابل بتفسخها ثم بتقويضها على يد الكاشيين. وكذلك تدنت حضارة الهكسوس بخلفاء تافهين لمؤسسيها الأوائل فكر عليها بقايا الفراعنة القدماء في جنوب مصر وقوضوها.

ثالثاً: قامت الدولة الفرعونية الحديثة على أنقاض الهكسوس بوثنية متطورة مبذرة بلا حدود في أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد. وبلغ الاسراف فيها في تبديد الثروات على المظاهر الفارغة حدوداً خيالية. فالملكة حتشبسوت مثلاً أقامت مسلتيها المشهورتين في الكرنك وجعلت لهما رأسين من الذهب الخالص وكتبت على احداهما مفتخرة تقول: «إن هاتين المسلتين قد صنعتا من حجر الغرانيت الذي جلب من محاجر الجنوب، وأن رأسيهما من الذهب الابريز الذي اختير من أحسن ما حوت منه البلاد الأجنبية.. وأنتم يا من ترون هذين الأثرين بعد زمن طويل من بعدي ستقولون أنا نتعجب كيف أقاموا جبلاً كله من الذهب. لقد أنفقت في تذهيبهما ذهباً كنت أكيله كيلاً كأنه أكياس من الحبوب.. ذلك أن الكرنك هو عتبة السماء..». هنا نجد أن سماء الفراعنة تولى اهتمامها لاستكبار الملوك واسرافهم، على عكس سماء حمورابي التي انصب اهتمامها على انصاف الناس وحسن رعايتهم. وقد انصبت الثروات الهائلة في عهد الدولة الفرعونية الحديثة في خزائن الكهنة في الوقت الذي جاع فيه الشعب. تقول قصة الحضارة: «لم يكن في البلاد سلطة تعلو فوق سلطة الفرعون في أواخر عهود الدولة الحديثة الا سلطة الكهنة فقد كانت أسلاب كل حرب والجزء الأكبر من خراج البلاد المفتوحة تتدفق في خزائن الهياكل والكهنة. وبلغت هذه الثروة قمتها في عهد رعمسيس الثالث. فكان للمعابد من العبيد أكثر من مائة ألف عبد، أي ما يعادل جزءاً من ثلاثين من سكان مصر. وكان لها من أرض مصر ثلاثة أرباع المليون فدان أي سبع أرض مصر الصالحة للزراعة. وكان عندها نصف مليون رأس ماشية. وتستحوذ على ايراد ١٦٩ مدينة من مدن مصر والشام. وأتاها من الهدايا أكثر من ثلاثين طناً من الذهب وألف طن من الفضة وكان واردها السنوي من الحبوب يقرب من مائتي ألف كيس». إلا أن الخزائن كانت خاوية عندما كان يحين وقت أداء أجور العمال الذين تستخدمهم الدولة في مرافقها. كما أن جوع الشعب كان يشتد يوماً بعد يوم.

كان المجتمع قد تعقد قبل الدولة الفرعونية الحديثة بزمن طويل. وكانت قد تقدمت وسائل الانتاج

وقسمة العمل وارتقت المهارات في مختلف فروع الانتاج: في الزراعة والحرف والفنون «فمن الصناع مثلاً من كان يعمل في نسج القماش من أدق الخيوط المعروفة في تاريخ النسيج كله. وقد عثر المنقبون على نماذج من الكتان منسوجة من أربعة آلاف عام في مصر، وعلى الرغم من عوادي الأيام فإن خيوطها قد بلغت من الدقة حداً لا يستطيع الانسان معه أن يميزها من خيوط الحرير إلا بمجهر». وتقدمت التجارة وظهرت أشكال النقد وأعمال السفتجة إلخ. . ثم قامت الامبراطورية الفرعونية الحديثة على أنقاض الهكسوس مع تقدم عصرها المادي من جهة وحروبها وصراعاتها الداخلية والخارجية من جهة ثانية. وأتى معها زمن على جملة المجتمعات الانسانية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، كان قد مضى فيه على العصر البرونزي الثاني العديد من القرون فبلغ نهايته ليطل عصر الفولاذ في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وكانت قد انحطت فيه العلاقات القائمة في كل مجتمع من مجتمعات الجملة الانسانية المذكورة والقائمة فيما بين مختلف تلك المجتمعات والدول إلى الفوضى والأزمات المتلاحقة. تلك العلاقات التي كان نظام الرق يرتكز عليها فلا يستعبد بها السيد أرقاءه فحسب وإنما تجعل لكل من هو أعلى في السلم الاجتماعي على من هو أدنى سلطة مطلقة لا تلتزم بأي قاعدة فتبلغ عند الفرعون أو الملك سلطة الاله الوثني. وبلغ الكهنة في عصر الدولة الحديثة، لا سيما في أواخر عهودها، حالة غدوا معها يمثلون أشد أنواع الرجعية سواداً وتفسخاً. فهذه الطبقة التي لعبت فيما مضى، قبل عهود الامبراطوريات عندما كانت المجتمعات الانسانية حديثة الخروج من طور المشاعات البدائية، دوراً ايجابياً في جمع العلوم ونشر التعليم في المجتمع، والتي كانت في مصر، على الأخص، «دعامة العرش والشرطة السرية القوامة على النظام الاجتماعي»، نقول أن هذه الطبقة انحلت وأصبحت في عهد اخناتون طغمة من السحرة باعة الرقى تنشر الفساد السياسي والأخلاقي وتأكل المال الحرام ولا تنطق إلا بالأكاذيب. ويصفها ذلك الفرعون الموحد بقوله الوارد في قصة الحضارة: «إن أقوال الكهنة لأشد أثماً من كل ما بلغ سمعي. .».

رابعاً: إن ما يلفت الانتباه بشكل خاص في أخبار موسى هو أن هذا الاسم مصري بحسب كل الروايات التاريخية وفي مقدمتها الفصل الثاني من سفر الخروج التوراتي. فهو، بعد أن قرن بأسماء بعض آلهة مصر، قد أطلق على شخصيات كبيرة هناك. فرأينا أعلاه مثلاً أنه كان اسماً لعدد من الفراعنة حكموا مصر ولعدد آخر من القادة والشخصيات الاجتماعية الكبيرة. وهو أيضاً اسم محرر مصر من حكم الهكسوس: مؤسس الأسرة الثامنة عشرة «احمس» أو «اح موسى». وتخبرنا التوراة أن ابنة الفرعون انتشلت صبياً جميلاً من النيل معبود المصريين، وكأنما هذا الاله قد ولده، فأطلقت عليه اسم موسى وعزت سبب هذه التسمية إلى أنه أتى من النيل. ثم إن موسى قاد تلك الثورة الكبرى ضد العبودية والقهر الفرعوني. كل هذا يدعو إلى الاعتقاد بأن كلمة «موسى» باللغة المصرية القديمة تعبر عن لقب يطلق على قائد كبير يأتي ليحقق انجازاً تاريخياً ضخماً، اجتماعياً أو عسكرياً: تعبر مثلاً عن معنى «منقذ» أو «بطل» أو ما شابه. ومما يعزز ما نذهب إليه هنا أن مؤلفي كتاب التوراة، الحريصين على تثبيت خرافة «شعب الله المختار». بفصل جماعة موسى عن وسطهم الطبيعي المصري، الذي كان يتضمن حينذاك كل الأجناس التي كونت الأمة العربية فيما بعد، لا سيما منها الجنس المصري الغالب، نقول أن أولئك الكتاب عبثاً حاولوا تأكيد عبرانية موسى وعبرانية أتباعه بشكل يبرز فيه بفظاظة الافتعال وقصد تثبيت صحة ما ليس بصحيح بداهة، تثبيت وجود العبرانيين المتميزين من وسطهم الطبيعي طوال عشرات القرون. لقد صوروا مثلاً موسى الذي كان بحسب أخبار أسطورته قد

ربي في قصور الأمراء المصريين بصورة واحد من أولئك الأرقاء أو المضطهدين «العبرانيين» الذين كانوا يعانون من قهر المصريين وإذلالهم لهم الأمر الذي يناقض تماماً سياق سيرته التي ترويها التوراة بالذات والبديهي أن الأحداث الكبرى التي قامت في مصر تلك الأيام كانت مصرية بجميع أطرافها التي ساهمت فيها، وكان سببها ذلك النظام العبودي الذي كان سائداً هناك والذي لا بد له من أن يصيب بقهره كل جماهير المجتمع المصري وليس فقط فئة واحدة «مختارة» من هذه الجماهير فتكون الثورات ضده مصرية إذن غير فئوية. وسوء الأحوال لا بد من أن يستدعي الثورة في النتيجة وقد أدت مثل هذه الأحوال بالفعل إلى ثورة شهيرة معروفة قادها الفرعون اخناتون في مصر بذاتها دون الحاجة إلى نوع خاص من الانسان يزعم بأنه مختار. ومن جهة ثانية لا بد من أن تكون تلك الثورات عديدة وليست محصورة بتلك التي تخبر عنها قصة الخروج الشهيرة. فالزمن الذي دامت فيه الامبراطورية الفرعونية الحديثة امتد عدداً من القرون: من أوائل القرن السادس عشر حتى أوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وذلك في ظروف القهر الوثني المشار إليه أعلاه. وكانت أكبرها وأشدها حسماً وأثراً تلك الثورة المصرية التي قادها موسى عليه السلام والتي أخبارها في الأدب الشعبي وسعت كثيراً من أخبار الأخريات مثيلاتها في تلك المرحلة التاريخية أو شابهتها لتشابه الظروف فتحير القصاص والمؤرخون في تحديد زمانها وتعيينها بين نظائرها تلك. والقصة الشعبية انتحلت في التوراة قصائد كاملة لاخناتون وجلجامش وبنوداً كثيرة من قوانين حمورابي.

ثورات التوحيد

قلنا أن التعارض والصراع الاجتماعي بين قوى الوثنية والجمود الساعية عبثاً إلى تثبيت وتخليد كل ما هو ملائم لمصالحها من العلاقات الاجتماعية وبين قوى الثورة والتقدم الساعية دوماً إلى التحرر والخلاص من العبودية الناشئة عن العلاقات المذكورة هو صراع أزلي. وقلنا أيضاً أن الثورة في عهد الرق كانت على العموم تُهيأ بتنظيم كتل المسحوقين والمتضررين بالنظام العام ليقوموا بالفرار بالقوة من المدن العبودية اللينة العيش نسبياً إلى المناطق الصعبة من الأرض. ورأينا أمثلة على هذه الأمور. ولكن هنالك سلسلة من الثورات في طور الرق تلفت النظر بتشابه جوهره عقائدها. وقد مارست تلك الثورات جميعها عند قيامها عملية الخروج من مدن النظام إلى المناطق الصعبة من الجملة الانسانية، وهي ثورات التوحيد التي قامت في مختلف روافد الأمة العربية التي سبقت غيرها في التأسيس للحضارات وبنائها: ثورة ابراهيم الخليل مثلاً فيما بين النهرين، وثورة موسى في وادي النيل، وثورتا هود وصالح في الجزيرة العربية، إلى أن قام الاسلام بالاطاحة بنظام الرقيق العالمي في نهاية الأمر. فهذه السلسلة من الثورات لاحظت دوماً أن وراء كل طقوس الوثنية وشعائرها الصاخبة وأساطيرها الخادعة حقيقة أزلية هي أن ما تثبته الوثنية من عقائد ما هي إلا الاغلال الروحية التي ترتكز عليها الأغلال المادية التي تشد الناس إلى نظام العبودية، وإن آلهة الوثنية ما هي إلا رموز يقوم تحتها أكثر النماذج شيوعاً في طبقات السادة قادة المجتمع العبودي، وأن أوساط الآلهة ما هي إلا صور أوساط السادة التي بدورها تجسد في الواقع المادي عالم الآلهة وأساطيرها. فالمدونات البابلية مثلاً تصف لنا تلك الأغلال الروحية فتقول: «إن الغاية من خلق الانسان هي عبادة الآلهة وامدادها بما تحتاجه من المؤن لعيشها. لذلك فإن عدم تحقيق هذه الغاية أو التقصير فيها يعرض الانسان إلى بطشها ونقمتها وغضبها في هذه الحياة بشتى ضروب العقاب.

فالحصـــول على رضـــا الآلهـة هو أقصى ما يتمناه العبـد ويسعى إليـه لأن سخـط الآلهـة مجلبـة للولايـلات والدمار. .». وقد وردت هذه العبادة في بحث العرب واليهود للدكتور أحمد سوسة. وعلينا أن نبدل فيها كلمة الآلهة بكلمة «السادة» و«الكهنة» الذين يشكلون في الواقع «جسم» الآلهة الذي يجب تغذيته بالأنهار من عرق ودمـاء الكـادحـين ليـدوم عالم تلك الآلهـة، والـذين لا يمكن أن يتجلى رضا الآلهة أو غضبها إلا من خلالهم بشكل ظاهر واضح أو خفي حسب الظروف: إن نظام السـادة يحدد بقوانينه الأمور التي تُرضي السادة وتُرضي آلهتهم، كما يحدد «شكل الغضب والبطش» بالعبد المخالف لارادتهم وإرادتها. نقول إذن أن تلك السلسلة من الثورات العربية لاحظت في عقائدها هذا الأمر الذي يشد الناس إلى العبودية ويجعل بعضهم أرباب بعض.

فردت عليـه بما هو في صميم تطلع الانسـان وطمـوحـه وهـو المسـاواة بين النـاس (بغض النظـر عن ظروفهم الاجتمـاعيـة) تجاه إله واحد خالق للعالم منزه عن كل تشبيه لا سيما التشبيه بالانسان كما تفعل الوثنية. وقد طورت ثورات التوحيد المتسلسلة هذه في مجتمعات الرق في منطقة البحر الأبيض المتوسط نظاماً روحياً كان في أساس ما كان ينتشر من أفكار وأخلاق تناقض أفكار وأخلاق العبودية ووثنيتها وتعكس الشكوى الأزلية لسواد الناس منهـا وعلى الأخص شكـوى أولئـك المسحـوقـين من أرقـاء وأشبـاه أرقـاء وكل انسان شريف متشكك بصحة وجدوى علاقات النظام العبودي. وكان الجوهر الواحد لثورات التوحيد (وهو العمل وتصعيد الجهاد إلى درجة الاستشهاد في سبيل انقاذ الانسان من نظام الرق ودفع مجتمعاته وجملته الانسانية في طريق التقدم نحو الأطوار العليا) نقول كان ذلك الجوهر الواحد هو القرابة الحقيقية التي تسلسلت هذه الثورات عبرها: هو السبب في قلب تلك القـرابـة الـروحيـة في مخيلة النـاس الـذي مجدوا الرسل المجاهدين قادة الثورات المذكورة إلى قرابة مادية جعلتهم يتسلسلون من صلب نبي واحد هو ابراهيم الخليل الذي أصبح بدوره من صلب أبي الأجناس نوح عليه السلام.

لأن معـارضـة نظـام الـرق بالخـروج عليـه والعمل على احلال نظام آخر متقدم مكانه، نظام التوحيد مثلاً، لم يقتصر على الثورات الآنفة الذكر. فمما لا ريب فيه أنه كان هناك ثورات عديدة لم تبقَ في ذاكرة الناس لتسجل في كتاب التوراة مثلاً كما بقيت وسجلت تلك الثورات الكبرى الموحدة التي غدت كل واحدة منها في المرحلة التي قامت فيها رمزاً تضمن ما سبقها ولحقها من ثورات ضد العبودية والقهر الوثني. ومن المفهوم جيداً أن لا يكون لتلك الثورات مكان واسع في الآثار التي تركها لنا رسميو تلك الأزمنة المغرمون فقط بتسجيل كل ما يمجد أشخاصهم ومنجزاتهم الواقعية والوهمية وكل ما لا يسيء إلى نظامهم: يقول ديورانت في قصه الحضارة «من أغرب الأشياء أن حضارة كانت تستغل العمال هذا الاستغلال القاسي لم تعرف أو تسجل إلا عدداً ضئيلاً من الثورات». ولكن ذاكرة الأجيال والآداب الشعبية التي هي أيضاً، كالأحجار الأثرية، من المخلفات المادية للماضي فلم تنشأ بداهـة من العـدم، تذكـر جيـداً، ولـو بشكل اسطوري، سير أولئك الأبطال الذين تفانوا في الكفـاح من أجـل تحريـر الانسان فسقط الكثيرون منهم شهداء وعانوا جميعاً أعظم الشقاء والبلاء على طريق الجهـاد. إن الآثـار المصـرية مثلاً حفظت أخبار ثورة قام بها الملك اخناتون ضد الوثنية ولكنها لم تحفظ لنا أخبار ثورة أخرى ضخمة هي ثورة موسى عليه السلام مع قرب العهد نسبياً بين الثورتين.

اخناتون

إن ثورة هذا الفرعون على الوثنية ارهاص لثورة موسى في الوقت الذي هي فيه برهان على سوء الأحوال الداعية إلى قيام الحركة الموسوية. وكان التناقض الرئيسي في مجتمع ذلك العهد يقوم بين طبقتي التجارة والكهنة. فمصلحة التجار كانت في إزالة الحواجز والقيود بين مختلف مناطق جملة المجتمعات الانسانية، وفي نشر الأمن على طرق التجارة، وتوجيه الأيدي العاملة نحو انتاج ما يمكن نقله والاتجار به وليس في تبذيرها بمئات الألوف في نقل الأحجار الضخمة مثلاً لبناء صروح لا فائدة منها كالاهرامات والمياكل وكل ما شابه. وقد قلنا أن طبقة الكهنة انحطت حينذاك إلى أسفل درك وتفسخت فأصبحت عبئاً باهظاً على النظام. وعلينا أن نلاحظ أيضاً أنه في تلك الفترة المنقضية ما بين منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد وأواخر القرن الثالث عشر، أي من عهد اخناتون في مصر إلى أواخر عهد رعمسيس الثاني، وهو ما يعادل تقريباً عهد الأسرة التاسعة عشرة الفرعونية، نقول علينا أن نلاحظ أن الأحوال في بقية أنحاء جملة المجتمعات الانسانية ما كانت أفضل مما كانت عليه في مصر، فقد استمرت مثلاً الامبراطورية البابلية في الشرق بالتردي والانحسار. ونقرأ في قصة الحضارة لديورانت عن اضمحلال مصر ما يلي:

«.. أصبح الملوك في النهاية خدام الآلهة (أي الكهنة). فلما أن جلس على العرش آخر الملوك الذين تسموا باسم رعمسيس اغتصب الملك الكاهن الأكبر وأصبحت الامبراطورية المصرية حكومة دينية راكدة واضمحلت فيها كل مقومات الحياة.. وكان من أهم موارد مصر موقعها على الطريق الرئيسي للتجارة. لكن أمماً جديدة في بلاد آشور وبابل وفارس كانت حينذاك تتمرد، وكانت تدعم قوتها بالمخترعات (قيام عصر الفولاذ).. وأخذ سير التجارة يقل شيئاً فشيئاً في قوافل الشرق الأدنى الجبلية الصحراوية المعرضة لهجمات اللصوص وأصبحت البضائع تنقل بوسائل أقل كلفة على سفن تخترق البحر الأسود وبحرايجة إلى طروادة وكريت واليونان. وعلا نجم الأمم الواقعة على شواطىء البحر المتوسط الشمالية. أما الأمم المقيمة على شواطئه الجنوبية فقد ضعفت..».

قامت إذن في هذه الظروف دعوة اخناتون التوحيدية. فصدرت الأوامر باغلاق معابد الوثنية ومطاردة كهنتها، ودعي إلى عبادة إله واحد: «أتون». الاله الذي قيلت فيه الترانيم وقصائد التمجيد وقيل أنه رب الأمم وخالق كل شيء والذي عُرِّفَ كما يلي:

«.. ألا ما أكثر أعمالك الخافية علينا،
أيها الاله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه،
يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك،
حين كنت وحيداً:
الناس والأنعام كبيرها وصغيرها،
وكل ما على الأرض من دابة،
وكل ما يمشي على قدمين،

وكل ما هو في العلا ويطير بجناحيه،
والبلاد الأجنبية من سورية إلى كوش. . وأرض مصر،
إنك تضع كل إنسان في موضعه،
وتمدهم بحاجاتهم».

كانت ديانة اخناتون التوحيدية تعبر بصدق وإخلاص عن الطموح للخلاص من الوثنية المهترئة حينذاك. وكان جوهرها. الأخوة بين الناس والسلام والتعاون بين أجناسهم، ونحن لا نعلم مدى دعم طبقة التجار (أصحاب أكبر مصلحة في التقدم بالخلاص من الوثنية في ذلك العصر) لهذه الدعوة، ولا مقدار وشكل مساندة الطبقات المظلومة الطامحة إلى الانعتاق لها. ولكن هذه الدعوة، على ما يبدو جلياً، تركت العلاقات الاجتماعية على كا كانت عليه دون تغيير يذكر، فلم تضرب الكهنة في احداهم أسباب قوتهم وسيطرتهم فابقت لهم ثرواتهم الطائلة، فانهارت لذلك بموت راعيها اخناتون، وانهارت معها امبراطورية الأسرة الثامنة عشرة. إلا أنها تركت مع ذلك آثاراً لا تمحى في ذاكرة الأجيال الطامحة إلى التقدم نحو علاقات انسانية أفضل لا تسممها مستنقعات الجمود والوثنية.

زمن الدعوة الموسوية

قلنا أن الغموض يكتنف شخصية موسى ودعوته. وكذلك اختلف الرواة في تعيين زمن الخروج. فالتوراة المصدر الأساسي لأخبار الحركة الموسوية كتبت بعد موسى بعدد من القرون وهي تفيض بغيبيات الوثنية اليهودية ومبالغاتها وحشو كلامها. إلا أنه يبقى فيها دوماً بعض العلامات المفيدة في استخلاص الزبدة من أخبار تلك الثورة الكبرى، فهي على كل حال قراءة في الآثار التي تركتها هذه الثورة في ذاكرة الأجيال الشعبية قام بها الكهنة الذين وضعوها.

ولنأخذ عهد اخناتون كعلامة أساسية لحصر زمن أحداث الحركة الموسوية ولفهم أسباب وأهداف هذه الحركة. وهذه العلامة واضحة ومؤكدة لا تكتنف قيامها في الواقع أية شبهة لا في الزمان ولا في مدلولاتها التاريخية. كذلك يتأكد بذات القوة قيام الحركة الموسوية التي لم تحظ بتسجيل لها في الآثار الرسمية لزمانها بما تركته هذه الحركة من آثار مادية في مجتمعات المنطقة. وبالتالي علينا أن نحصر محاولتنا الحالية في البحث عن الموقع التاريخي الحقيقي للثورة الموسوية. ويمكن تصنيف اجتهادات الباحثين في تعيين زمن الخروج بالنسبة إلى زمن اخناتون في زمرتين: الأولى التي ترجع دعوة موسى إلى زمن يسبق عهد اخناتون، والثانية إلى ما بعد هذا العهد.

١ ـ قبل اخناتون:

قلنا أن الآراء متفقة على أن موسى هو اسم مصري وليس في لغة لا وجود لها في عصر الدعوة، وهي اللغة العبرانية، الأمر الذي يقود إلى الاعتقاد بأن صاحب هذا الاسم هو مصري أيضاً. يقول عالم الآثار جون غارستن، عضو بعثة جامعة ليفربول في حفريات اريحا في الثلاثينات من هذا القرن، أنه كشف في المقابر الملكية هناك أدلة تثبت أن موسى قد أنجبته في عام ١٥٢٧ الأميرة التي أصبحت فيما بعد الملكة حتشبسوت،

وأنه تربى في بلاطها ثم فر من مصر في عهد تحتمس الثالث عدوها. وكان الخروج بحسب هذا العالم غارستن عام ١٤٤٧ كما كان سقوط اريحا بيد يشوع بن نون عام ١٤٤٠.

٢ ـ بعد اخناتون:

تقول أكثر الآراء أن الخروج كان في أوائل القرن الثالث عشر قبل الميلاد في عهد الفرعون رعمسيس الثاني. فإذا أخذنا بما ورد في التوراة من أن موسى كان في الثمانين من عمره عندما قام بدعوته فإن مولده يكون خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ويكون بحسب هذه التقديرات قد عاش شبابه وكهولته في الأحداث العظام لتلك الأيام: ثورة اخناتون واغلاقه معابد الوثنية ومطاردته الكهنة، ثم مرحلة الردة إلى الوثنية ومطاردة أتباع اخناتون والسعي لمحو آثار دعوته.

ونجد في هذا الرأي الأخير ما يغري بالأخذ به. فالدعوة الموسوية قريبة روحياً من دعوة اخناتون وتشبه فصلاً من فصول مطاردة أتباعها ومقاومة هؤلاء الأتباع. وهذا رأي يأخذ به بعض الباحثين. إلا أنه بالتدقيق في مقومات هذا الرأي نجد الأمور التالية التي تعارضه وتستبعده:

أولاً: إن رعمسيس الثاني كان فرعوناً قوياً ما كانت لتعجزه حركة موسى لو أنها قامت في زمنه. إلا أنه من غير المستبعد أن يقوم في عهد هذا الفرعون المسخرون والعبيد بثورات غير ناجحة ولكنها تشكل تجارب ومدارس لقادة الثورة الموسوية.

ثانياً: إن ما جاء في التوراة من أن موسى كان في الثمانين من عمره عندما قام بدعوته هو من الأساطير التي يرفضها العقل. فمثل تلك الحركة تتطلب قائداً قوي الجسم ليتحمل كل ذلك الشقاء الذي عاناه القائمون بها أثناء تنظيمها في مصر وفي التيه في سيناء.

ثالثاً: إن دعوة موسى وإن شابهت دعوة اخناتون من حيث أخذها بمبدأ التوحيد إلا أنها تختلف عنها من حيث المضمون الاجتماعي. لقد كانت كما سنرى فيما يلي من البحث حركة كبيرة تهدف إلى تحقيق الانصاف للفئات التي تقع على عاتقها أثقال النظام العبودي بينما اكتفت الاخناتونية بضرب الوجه الوثني للنظام دون تغيير علاقاته، أو على الأقل التخفيف من آثار هذه العلاقات على المسخرين والعبيد.

رابعاً: قد يذهب الظن إلى أن مولد موسى وقيام دعوته وخروجه من مصر وتيهه في سيناء مع قومه حتى وفاته، كل هذا الذي تتجاوز مدته الثمانين عاماً كان في الفترة الواقعة بين عهدي اخناتون ورعمسيس الثاني. ولكن هذه الفترة الأخيرة التي تعادل نصف القرن (من عام ١٣٥٠ ق.م. إلى بدء عهد رعمسيس عام ١٢٩٨ ق.م). لا يمكن أن تستوعب تلك الأحداث التي دامت نحواً من ثمانين عاماً. أضف إلى هذا أن عهد الفرعون القوي رعمسيس كان عهد حروب سارت فيه جيوش مصر القوية نحو الشمال عبر سيناء وفلسطين لمحاربة الأعداء الحثيين فكان الاحتمال ضئيلاً جداً أن تترك تلك الجيوش أصحاب موسى بقيادة يشوع بن نون الذي خلف موسى يقومون بعملياتهم في مجنباتها ومؤخراتها أثناء غزوهم أرض فلسطين. كما أن هذه الأرض بقيت تابعة للامبراطورية المصرية في عهد ذلك الملك القوي بعد انتهاء الحروب مع الحثيين، فمن المستبعد أن يقف هذا الملك موقف المتفرج في كل صراع يدور عليها وكان لا بد له من أن يقوم بنجدة ملوكها ضد يشوع فيما لو كانت غزوة هذا الأخير لفلسطين في عهده: تنبئنا مخلفات تل العمارنة مثلاً عن كتب

وردت من ملوك فلسطين إلى اخناتون تستنجد به ضد بدو كانوا يعيثون فساداً في أراضيهم. فمن باب أولى أن يستنجد ملوك تلك البلاد برعمسيس القوي وأن ينجدهم هذا الملك فيما لو كانت عمليات يشوع ضدهم في عهده، الأمر الذي لم يحدث ولم تكن له أي دلالة في الآثار التي تركها ذلك العهد.

أما فيما يخص رأي جون غارستن الآنف الذكر فإن الأحداث تبطىء فيه كثيراً بحيث تنقضي مدة تزيد على الخمسة قرون بين مولد موسى في أواخر القرن السادس عشر قبل الميلاد وبين قيام عهد داوود في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد. وهذا أمر يناقض كل التقديرات المتفق عليها والمعقولة وهي أن تلك المدة لا تزيد كثيرا على القرنين: قرن لحياة موسى وأحداثها وقرن ونيف لعهد القضاة الممتد من وفاة موسى إلى قيام عهد الملوك في أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد. يضاف إلى هذا انه لو قامت دعوة موسى قبل اخناتون وتبعها ما تبعها من تيه في سيناء أعقبه هجوم يشوع بن نون بقوم موسى على مدن فلسطين فإن ذكر هذه الحركة ما كان ليهمل في الآثار الاخناتونية لما في دعوتي موسى واخناتون من تقارب روحي وما بين قائدي الدعوتين من قرابة بالدم الملكي: رأينا مثلاً أن موسى بحسب رواية جون غارستن هو ابن الملكة حتشبسوت فيكون اذن إن صحت هذه الرواية أميراً من الأسرة الثامنة عشرة التي كان آخر ملوكها اخناتون أو صهره توت عنخ أمون.

إن في عصر انحطاط النظام في مصر، أقوى بلد في جملة المجتمعات الانسانية حينذاك، في عصر أضخم أزمة عامة حلت في هذه الجملة التي رأيناها أعلاه تتهيأ للدخول في عصر «الفولاذ» بعد أن مضى عليها في العصر البرونزي نحو من عشرين قرناً، والتي قلنا أن دولها الجنوبية قد أصابها الضعف في تلك الأوقات التي بدأت فيها أقوام الشمال من حثيين وآشوريين وفرس ويونان تتململ وتثور على امبراطوريات الجنوب لتنتقل إليها في نهاية الأمر قيادة الحضارات المتعاقبة لأنظمة الرق، نقول أن في عصر تلك الأزمنة الضخمة الطويلة التي ثار فيها نقع الفتنة في جمع أطراف البلاد»، بحسب تعبير ديورانت في قصة الحضارة، متسعاً من الزمن وملاءمة في الظروف لتقوم الحركة الموسوية وتعقبها هجمات قوم موسى على فلسطين بقيادة يشوع بن نون وخروب خلفائه القضاة حتى عصر الملوك الذي قام في نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد. فالفرعون مرنبتاح مثلاً الذي ظهرت في أيامه بوادر تلك الأزمة العامة حكم في الفترة: ١٢٣٦ ق.م - ١٢٢٣ق.م. فهناك إذن أكثر من قرنين بين هذه الفترة وبين قيام عهد ملوك قوم موسى. فنقول إذن أن زمن الخروج كان في أوائل هذه المرحلة الزمنية على الأرجح. وقد يكون مولد موسى وجزء كبير من شبابه في عهد رعمسيس الثاني حيث كان فيه نشاطه لا يؤدي إلى صدام كبير مع السلطات المصرية كذلك الذي حدث عندما جاهر بدعوته. وقد يكون أيضاً لجوؤه إلى مدين في سيناء (قبل الجهر بدعوته) في عهد ذلك الفرعون القوي رعمسيس الثاني، وذلك بسبب ملاحقة السلطات له هناك لقيامه بنشاط يزعجها كالاشتراك في أعمال تحريض المسخرين والعبيد وتنظيمهم ليقاوموا النظام بشكل مجدٍ، فصدف مثلاً أن أدى نشاطه إلى قتل رجل من خصوم حركته كما هو مذكور في القرآن الكريم في سورة القصص: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان أنه عدو مضل مبين﴾. فكان من نتيجة ذلك أن أقام في ذلك المنفى تلك المدة التي قدرها القرآن الكريم بثماني أو عشر سنوات والتي مات في نهايتها رعمسيس الثاني وقام عهد آخر مكانه ذكره الفصلان الثاني والرابع من سفر الخروج بالعبارات التالية: «وكان بعد أيام كثيرة أن ملك

مصر مات. وتنهد بنو اسرائيل من خدمتهم وصرخوا وصعد صراخهم إلى الله من الخدمة.. فمضى موسى ورجع إلى يِثْرُوَ(شُعَيْب) حميه وقال له إني منطلق فراجع إلى اخوتي الذين بمصر لأنظر هل هم باقون.. وقال الرب لموسى بمدين امض فارجع إلى مصر فإنه قد مات جميع القوم الذين يطلبون نفسك (يلاحقونك). وبدأت الاضطرابات في عهد مرنفتاح الذي خلف والده رعمسيس الثاني. وتقول بريتانيكا أن مصر: «تعرضت لهجمات اللوبيين حينذاك و«لأقوام البحر» الذين كان منهم الفلسطينيون الآتون من المناطق الشمالية للبحر الأبيض المتوسط. وقد انقضى عهد هذا الفرعون في صد تلك الهجمات التي استمرت مع ذلك إلى ما بعد عهده. وبعد موته قام في مصر عهد قصير لحكام تافهين. فهناك كتابة على ورقة بابيروس كبيرة كتبت بعد موت رعمسيس الثالث من الأسرة العشرين لتسجل هداياه إلى المعابد وتستعرض باختصار الاضطرابات التي سبقت عهده فتقول: إن أرض مصر كانت مقسمة بين زعماء وحكام مدن متناحرين..». وهنا علينا أن نلاحظ أن زمن الاضطرابات هذا كان زمن انحلال الأسرة الفرعونية التاسعة عشرة وقيام الأسرة العشرين في نهايته. فإذا كان الخروج أو بالأحرى اشتداد النشاط من أجل تنظيم واعداد الثورة التي أدت إلى الخروج في فترة الهبوط هذه، في عهد الفرعون ستنخت مؤسس الأسرة العشرين مثلاً الذي لم يعش إلا سنتين (من ١٢٠٠ ق.م. - ١١٩٨ ق.م). أو في عهد ابنه رعمسيس الثالث، فإنه يبقى زمن كاف لاستيعاب مدة أربعين سنة التيه في سيناء ونحو من ثلاثين سنة لعمليات يشوع بن نون، أثناء هجومه بأصحاب موسى على فلسطين، وقرن يشكل عهد القضاة لنصل في النهاية إلى عهد شاؤول أول الملوك المعروف على العموم زمنه (١٠٢٥ ق.م - ١٠١٠ ق.م).

ولنلاحظ أن فرضية الخروج في عهد رعمسيس الثاني (١٣٠٤ ق.م - ١٢٣٧ ق.م) وهي الأكثر شيوعاً بين الفرضيات الأخرى تؤدي إلى المبالغة في أعمار الأشخاص كعمري موسى وخلفه يشوع مثلاً، وإلى زيادة مدة التيه في سيناء لتغطية زمن قد يزيد على القرنين ونصف ويفصل بين عهد ذلك الفرعون وبين قيام عهد الملوك حوالي ١٠٢٥ ق.م. أما في فرضيتنا الأنفة الذكر فإننا التزمنا في تحديد الأعمار في حدود المعقول والعادي فقدرنا مثلاً عمر موسى عند قيام دعوته بحوالي الأربعين سنة، وقدرنا أنه عاش ويشوع نحواً من ثمانين سنة. أما لمدة التيه وعهد القضاة فأخذنا بما هو شائع وهو على التوالي أربعون سنة وقرن.

مسلة مرنفتاح

قلنا أعلاه عند الكلام عن الغموض الذي يكتنف الدعوة الموسوية وصاحبها أن هناك مسلة أقامها الفرعون مرنفتاح حوالي عام ١٢٢٥ ق.م. وقد كتبت عليها عبارات تضمنت كلمة اسرائيل، الأمر الذي قد يوحي بوجود كيان حينذاك للجماعة الموسوية بهذا الاسم والذي قد يدل على أن الخروج كان قبل هذا التاريخ بزمن طويل. ولكن الثابت الذي لا يداخله شك هو أن أول دولة للجماعة المذكورة كانت بعد الفرعون مرنفتاح المذكور بزمن طويل، كما أن اسم «اسرائيل» لم يطلق على كيان لتلك الجماعات الموسوية إلا بعد قرن من تأسيس تلك الدولة الأولى: قام عهد «شاؤول» أول ملك موسوي عام ١٠٢٥ ق.م. ثم انقسمت دولة سليمان مباشرة بعد موته إلى دولتين: «يهوذا» في الجنوب وعاصمتها القدس، و«إفرايم» في الشمال وعاصمتها السامرة (سبسطية). وكان أصحاب هذه الدولة الأخيرة يطلقون عليها اسم «اسرائيل».

وبالعودة إلى النص المكتوب على المسلة المذكورة بصيغته الواردة في الموسوعة بريتانيكا نجد ما يلي فيما يخص الاشارة المذكورة إلى «اسرائيل»: . . وكل من كنعان، وعسقلان، وجازر، وبينوعام في الجليل، استبيح وانتهب: «لقد خربت اسرائيل ولم يعد لابنائها وجود، وأصبحت الأرض الواطئة (فلسطين) أرملة تابعة لمصر». فهذه العبارة تبين لنا بجلاء تام أن التعبير العربي «اسرائيل» الذي لا يمكن أن يدل على دولة موسوية غير موجودة في ذلك التاريخ كما هو واضح أعلاه كان يعني في ذهن المصريين فلسطين وما فيها من أصول للعرب في كنعان وعسقلان وجازر وبينوعام: أن اسرائيل في العبارة السابقة تعني المجموع (كنعان، وعسقلان، وجازر، وبينوعام) ولا تعني أبداً بلداً أو منطقة يضاف إلى هذا المجموع، كما أن فلسطين تعني اسرائيل هنا. ذلك لأن المصريين كغيرهم من الأقوام عبدوا في وثنيتهم آلهة من طبيعة وطنهم كالشمس الساطعة «رع» والأرض المنبتة «ايزيس» والنيل «اوزير» إلخ. . . ونفروا من آلهة غيرهم ممن جاورهم من أقوام فكانوا يسمون بلاد تلك الأقوام في حال العداوة لهم بأسماء آلهتهم (المنفرة بالنسبة إليهم والمحببة لأعدائهم). فأيل هو الاله الأكبر للعرب قاطني فلسطين من كنعانيين ويبوسيين وعمونيين وغيرهم، وهو أيضاً الاله الأكبر عند الهكسوس الذين أتوا من جهات فلسطين وغزوا مصر. فكان المصريون يعبرون عن المنطقة التي يعبد فيها هذا الاله «ايل» وخاصة سورية الطبيعية، باسم «اسرائيل» تماماً كما عبرنا دوماً عن أتباع السيد المسيح بكلمة المسيحيين وعن أتباع الاسلام بالمسلمين.

وقد مر معنا في سياق هذا البحث أن الصراع الأساسي في المجتمعات الانسانية العبودية كان وما يزال دوماً بين مجموعة قوى الرجعية الوثنية والجمود وبين قوى التقدم الموحدة للقيم الانسانية بشكل مناسب للطور الانساني القائم: التقدم الذي يزن الحقوق بميزان واحد لكل الناس وليس بموازين تختلف باختلاف مواقعهم الاجتماعية واختلاف أجناسهم كما تفعل الوثنية دوماً. وكان التعارض دوماً لذلك، في جملة مجتمعات البحر الأبيض المتوسط الخاضعة لنظام الرق، بين عقائد الوثنيين أسياد الرقيق الجامدين وبين الموحدين المجاهدين في سبيل دفع النظام الانساني في اتجاه التقدم نحو أخوة البشرة وتعاونهم وتكافلهم. وكان أيل على العموم إله التوحيد عند أولئك المجاهدين الذين كان يطلق عليهم لذلك اسم «اسرائيل»: أي عيال الله الواحد أو عباده أو الموحدون بالأحرى تمييزاً لهم من الوثنيين. وهذا الاسم يدل بداهة على الالحاد بالوثنية والايمان بالاله الواحد. وهو تعبير عربي وجد دوماً قبل وجود اليهود الذين حاولوا انتحاله وتخصيصه لأنفسهم كما حاولوا احتكار «عسل ولبن» المنطقة، الموعودين في الأصل للمجاهدين مع كل الانسان المؤمن بالتقدم، عندما تجمدوا وتركوا الجهاد في سبيل التقدم الانساني وعزلوا أنفسهم عن وسطهم الطبيعي في حدود وثنية تزعم ضلالاً أنهم «شعب مختار صاحب وعد بأرض اللبن والعسل».

إن ورود كلمة «اسرائيل» بهذا الشكل في كتابة مسلة الفرعون مرنفتاح (قبل الخروج وظهور اليهود على مسرح التاريخ وقبل قيام اللغة العبرية بزمن طويل) برهان حسي على شيوع هذه التسمية في أقطار الروافد التي التقت فيما بعد لتشكل الأمة العربية. إنها تسمية عربية خالصة وليس لها أية علاقة بكل التفسيرات وجميع الاجتهادات التي جرت وتجري في أيام التعصب الأعمى ضد الاسلام والعرب بقصد فصل ثورتي التوحيد الموسوية والعيسوية عن بيئتهما العربية ونقلهما بعد هذا مشوهتين إلى بيئة أولئك الأعداء الوثنيين في أوروبا والخزر ثم في أمريكا وتحويلهما هناك إلى عقائد تُبنى عليها حجج محاربة الأمة صاحبتهما، لتمزيقها

وسلبها ما تمتعت وتتمتع به من موقع خطير وثروات ما تنفك عن الازدياد بمرور الزمن. فكلمة اسرائيل جاءت على تلك المسلة بكل بساطة هذه الحقيقة الساطعة: أتت عفوية عادية لايضاح ما هوواضح، بعيدة عن كل تلك التقعرات الفكرية للكهنة المدافعين دوماً عن وثنيات مختلف أشكال العبوديين في كل العصور، لايضاح أحداث وقعت بين أقوام كانوا يتفاعلون في جملة المجتمعات العبودية في منطقة البحر الأبيض المتوسط أثناء القيام بأدوارهم في بناء أمة واحدة هي الأمة العربية، وليس لبناء أوهام تجعل نفراً من تلك الأقوام، تجعل مثلاً سلالة أولئك المسخرين والعبيد، الذين جاهدوا في مصر وفلسطين ضد الفَرْعَنَةِ والتمييز بين الناس، «شعباً مختاراً» متميزاً من الناس: يقول أحد المقدمين لسفر الأخبار في التوارة: «إن جماعة مكرسة لله لا تأكل كل ما يحلو ولا تلمس كل شيء ولا تستعمل كما تشاء قوى التناسل، كل ذلك تدابير وقائية لحفظ التوحيد ورفع مستوى أخلاق «الشعب المختار» بصورة تدريجية بواسطة وضع جواحز بينه وبين الوثنية المحيطة به..». فالله بموجب هذه العبارة أرسل الأنبياء «لعزل» هذه السلالة «الطاهرة»، لعزل بني اسرائيل بمفهوم كاتب هذه العبارة، عن بقية العالم الوثني «الخبيث» وليس لهدم الوثنية وتخليص هذا العالم منها ومن عبوديتها. فبمثل هذه النظرة تصبح بيئةالثورة غريبة عن الثورة التي تتحول بدورها إلى طقوس تساند نوعاً من أنواع الوثنية العبودية. بل إن هذه النظرة تنطبق تماماً على نظرة سيئي الصيت عرقيي جنوب افريقيا.

وبعد، إن مفهوم اسرائيل لا يعطي أية ميزة لأية جماعة محددة من الناس وإنما هومفهوم عام يتضمن بمفهوم الفراعنة الوثنيين كل جماعات العرب عبدة إيل، موحدين وغير موحدين. ففي لوحات رأس شمرة التي اكتشفت عام ١٩٢٩ قرب اللاذقية مثلاً نجد أيل كبير الآلهة يعيش مع باقي الأرباب في قمة جبل «لالا» (الجبل الأقرع المطل على البحر شمالي اللاذقية) حيث هناك عرشه ومملكته وحقوله. ومن هناك يصدر الأوامر في مجمع الآلهة. ونجد أيل عند عرب سورية «على شكل إله عام اسمه إلي أو إلوكإلوهيم اليهود» بحسب تعبير ديورانت في قصة الحضارة. ويقول الدكتور أحمد سوسة في بحثه العرب واليهود: «ورد أيل في النصوص الكنعانية والآرامية والمصرية في عهد الهكسوس، وورد مضافاً إلى أسماء عدد من ملوك اليمن..». فنرى إذن أن تداول اسم اسرائيل قبل عهد موسى، التداول الذي يتخذه المستعمرون وخدمهم الصهاينة، كما اتخذه ويتخذه الكهنة الجامدون العاملون في هياكل العبوديات الوثنية المتنوعة عبر التاريخ الانساني (قبل موسى وبعده) حجة لتجسيد وهم هووجود اليهود الأزلي غير المرتبط بأزمنة التاريخ كفئة «مختارة» من البشر لها رسلها وأنبياؤ ها المخصصون حصراً لها، نقول أن هذا التداول بالذات وشيوعه بين الأقوام العربية ينفي تماماً ذلك الوهم ويبين أن بيئة رسالات أولئك الأنبياء (وفي مقدمتهم موسى وعيسى عليهما السلام) هي البيئة العربية بأوسع مفاهيمها. إنها بيئتهم وهي أحق بهم من أولئك الجامدين الذين انحرفوا عن جوهر الرسالات وهو الكفاح ضد الوثنية وما تمثله من عبودية وقهر للانسان إلى عكسه تماماً وهودعم ومناصرة المتكبرين قاهري الناس. إن رسولنا الكريم ردد دوماً القول بأن الاسلام أولى بموسى من أولئك اليهود مدعي التوحيد في الوقت الذي كانوا فيه يناصرون الوثنية والعبودية بكل قواهم. وبالاختصار، إن «اسرائيل» بمفهوم الوثنيين العرب كانت تدل على خصومهم الموحدين العرب الكافرين بمعتقداتهم الوثنية. كما كانت تدل بمفهوم أولئك الموحدين على المؤمنين عبيد الله وعياله المجاهدين في سبيل تحقيق مُثُل التوحيد في إخوة الناس وتعاونهم

وتكـافلهم . فهي إذن كلمـة تولـدت في لغتنا العربية بعملية الصراع التاريخ الطويل بين الوثنية والتوحيد أثناء تكوّن أمتنا بتفاعل روافدها ومختلف فئاتها فيما بين بعضها بعضاً . ولكن المنحرفين اليهود إلى الوثنية انتحلوها لأنفسهم بعـد أن حرفـوا معنـاها عن الجهاد والمجاهدين لتدل على جماعة ادعت كذباً بأن الله قد اختارها دون كل الناس .